ما أحلاها!
أختي الكبرى

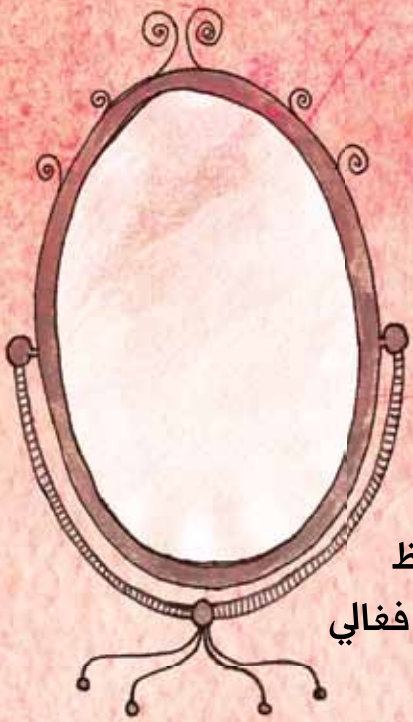

تأليف : سحر نجا محفوظ
رسم و تصميم : نادين فغالي

إلى أهلي الأعزاء وعائلتي الحبيبة، شكراً على الدعم المستمر

قَوامُها رَشيق . . .
شَعْرُها أَسْوَدُ طَويل . . .
جِلْدُها ناعِمٌ كَالحَرير . . .

إِنَّها أُخْتي الكُبْرى «**ميرنا**» .

تَكْبُرُني بِخَمْسِ سَنَواتٍ ، وَلكِنَّني أَشْعُرُ أَنَّها أَكْبَرُ مِنْ ذلك!

«تَعْرِفُ كَيْفَ تَلْبَسُ هذه الصَّبِيَّةُ الجَميلَة»

هذا ما أَسْمَعُهُ يَوْمِيًّا . «يَليقُ بِها الفُسْتانُ والتَّنّورَةُ البَنْطالُ الطَّويلُ والقَصيرُ ، كُلُّ شَيْءٍ تَضَعُه عَلَيْها يُصْبِحُ جَميلاً» ، كَلامُ أُمّي الدائم .

أَنْظُرُ في المِرْآةِ وأُحَدِّثُ نَفْسي
«ماذا يَنْقُصُني يَا تُرى!!!»

عُمْري عَشْرَةُ أَعْوامٍ ولكِنَّني أَقْصَرُ زَميلاتي ، هذا نَصيبي . سَوْفَ أَزْدادُ طولاً عِنْدَما أَكْبُرُ ، كما فَهِمْتُ يَوْماً مِنْ والِدَتي . تُصِرُّ أُمّي أَنْ أَقُصَّ شَعْري البُنِّيَّ لأَنَّني لا أَهْتَمُّ به كما يَجِب ، فَالشَّقاوَةُ واللَّعِبُ كُلُّ هَمّي ، كما تَعْتَقِد .

جِلْدي ناعِمٌ أَيْضاً . . . بَعْضَ الأَحْيان ، أُحاوِلُ أَنْ أَرْتَدِيَ مَلابِسي بِأَناقَةٍ ولكِنَّني أَفْشَلُ بِاسْتِمْرار ، لا أَعْرِفُ كَيْفَ أُرَتِّبُ الأَلْوانَ وَأُنسِّقُها . ما زِلْتُ أَضَعُ نَفْسَ الأَقْراطِ مُنْذُ كُنْتُ في سَنَتي الأولى . أَخافُ التَّغييرَ ، فهذا قَدْ يُرْبِكُني .

تَشْتَري لي أُمّي الفَساتينَ والتَّنانير ، أَعْتَرِفُ بِذَلِك ، ولَكِنَّني أَلْبَسُها مَرَّةً ثُمَّ أَضَعُها في خِزانَتي . أَشْعُرُ أَنَّها وَحْشٌ أَضَعُهُ عَلَيَّ أَوْ قِناعٌ أُخْفي بِهِ نَفْسي ، فَأَنا لَمْ أُتْقِنْ كَيْفِيَّةَ المَشْيِ مُرْتَدِيَةً تِلْكَ الْمَلابِس ، هذا صَعْب! حِذاءٌ رِياضِيٌّ وبَنْطالٌ وأَيُّ قَميصٍ يَفي بِالغَرَض .

أُحِسُّ أَنَّ وَقْتَ التَّغْييرِ قَدْ حان ، ولَكِنْ لِمَنْ أَلْجَأ؟؟

جاؤوا لها بِغُرْفَة نَوْم جَديدَة حمراءِ اللَّوْنِ كما كانَتْ تُريد، تَتَوسَّطُها مِرْآةٌ كَبيرَة، وعلى الطّاوِلَةِ ما تَشْتَهي مِنَ العُطورِ التي تُلائِمُها بِلا شَكّ. زَيَّنَتْ غُرْفَتَها بِصُوَرِ صَديقاتِها وهَداياهُنّ، ولَمْ تَنْسَ آلَةَ التَّصْويرِ التي تَعْشَق.

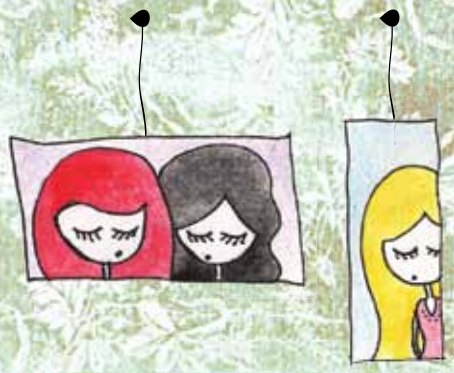

أُحِبُّ أُخْتي الكُبْرى جِداً، وَلكِنَّني لا أَفْهَمُ لِمَ يُعامِلونَها كَأَنَّها الفَتاةُ الوَحيدَةُ في المَنْزِل!

هل أنا غَيْرُ مَرْئِيَّة، أمْ أنَّني أَلْبَسُ غِطاءَ الإِخْفاء!

لمْ أَعُدْ طِفْلَة، هل تَسْمَعونَني؟ رَدَّدْتُها كَثيراً و بِصَوْتٍ عالٍ، ولَكِنَّهم ضَحِكوا مِنّي وحَضَنوني، هذا كُلُّ ما يَفْعَلونَهُ عادَةً.

لأوَّلِ مَرَّةٍ شَعَرْتُ بِالغَيْرَةِ تَخْنُقُني، لَيْسَتِ الغَيْرَةُ مِنْ أُخْتي، ولَكِنْ مِنْ طَريقَةِ مُعامَلَتِها ومُلاطَفَتِها. يُحِبّونَني أَيْضاً، مُتَأَكِّدَة، ولَكِنَّهم لا يَفْهَمونَني.

أَتَساءَلُ أَحْياناً إنْ كانَ ذَنْبي أَلا تُرْزَقَ أُمّي بِوَلَدٍ ذَكَر ولِهذا تُحاوِلُ مُعامَلَتي كَصَبِيٍّ ولَيْسَ كَفَتاةٍ بَدَأَتْ تَكْبُر!

وَحْدَهُ والِدي، حَبيبي المُسافِرُ بَعيداً، يُحَدِّثُني كَفَتاةٍ كَبيرَةٍ على الهاتِف، رُبَّما لأَنَّهُ لمْ يَرَني مُنْذُ فَتْرَةٍ ولا يَعْرِفُ ضَآلَةَ حَجْمي. يَسْأَلُني عَمّا أُريدُ عِنْدَ عَوْدَتِه، فَأَطْلُبُ جِهازَ تَسْجيلٍ أَو كاميرا أَو غُرْفَةَ نَوْمٍ جَديدَةً مِثْلَ «ميرنا»، فَتَأْخُذُ أُمّي سَمّاعَةَ الهاتِفِ وتُحَوِّلُ طَلَبي إلى لُعْبَةٍ أَو قِطْعَةِ مَلابِس.

لا، لا أُريدُ المَزيدَ من أَلعابِ الصِّغار

هلْ تَسْمَعينَني أُمّـــــي!!

أَعْلَمُ أَنَّكِ تُحبّينَني، فَأَنا أَسْأَلُكِ في اليَوْمِ الواحِدِ عَشَراتِ المَرّاتِ، فَقَطْ لِلتَّأَكُّدِ وسَماعِها، «نَعَمْ أُحِبُّكِ كَثيراً يا فرح بِالتَّأْكيد، كُفّي عَنْ سُؤالي». هل سَيَأْتي لي والِدي بما طَلَبْتُ مِنْهُ، أَمْ سَيُلَبّي طَلَبَ أُمّي!! طَبْعاً «ميرنا» تَأْمُرُ وهو يَجْلِبُ لها ما تَشْتَهي، أَلَيْسَ هذا ظُلْماً؟ مع أَنَّها لا تَطْلُبُ الكَثير.

أَقْلَقَني الأَمْرُ، وأَخَذَ مِنّي الكَثيرَ مِنْ وَقْتِ النَّوْمِ، وبَدا ذلكَ على وَجْهي. حتّى الدِّراسَةُ التي عادَةً أَتَفَوّقُ بِها، أَصْبَحْتُ أُهْمِلُها ولا أَكْتَرِثُ لَها كَثيراً. تَدَنّى مُسْتَوايَ التَّعليمي، ولَيْسَ بِيَدي حيلَة. فَأَنا مَقْهورَةٌ وغَيّورَة.

أَتَتْ خالَتي الأُسْبوعَ الفائِتَ لِزيارَتِنا، سَلَّمَتْ عَلَيَّ وقَبَّلَتْني، ثُمَّ ما لَبِثَتْ أَنْ عاتَبَتْني على تَدَنّي المُسْتوى في الصَّفّ، فإبْنُها «وليد» زَميلي في نَفْسِ الصَّفّ ولا بُدَّ أَنَّهُ أَخْبَرَها بما يَحْدُثُ، هذا الثَّرثارُ، أَهُوَ جاسوسُ العائِلَة؟ ذَكَّرَتْني بِأَنَّ أُمّي لَنْ تَسْكُتَ عَنْ ذلك، وكَأَنَّني كُنْتُ بِحاجَةٍ لِمَنْ يُنَبِّهُني، فَأَنا مُنْتَظِرَةٌ العِقابَ في أَيَّةِ لَحْظَة.

دَخَلَتْ «ميرنا» لِتَرى خالَتي فَوَقَفَتْ لها الأَخيرَة، مع أَنَّها لَمْ تَقِفْ لي طَبْعاً عِنْدَ دُخولي! حَضَنَتْها وقَبَّلَتْ وجْنَتَيْها، مَدَحَتْ أَناقَتَها وعِطْرَها الرّائِع، فِعْلاً رائِع. سَأَلَتْها عَنْ أَحْوالِ الدِّراسَةِ ولَمْ تَنْتَظِرْ حَتّى تُكْمِلَ لها، بَلْ قاطَعَتْها بِطَمْأَنَتِها إِلى أَنَّها على قَدَرِ المَسْؤولِيّة.

– خالَتي، هلْ أَنا اِبْنَةُ الجيرانِ أَمْ اِبْنَةُ أُخْتِكِ أَيْضاً!

«أَصْبَحَتْ عَروساً ما شاءَ اللهُ، وسَتَدْخُلُ الجامِعَةَ قَريباً»– التّعْليقُ الأَخيرُ مِنْ خالَتي الحَبيبةِ تِجاهَ أُخْتي.

كُنْتُ أَنْتَظِرُ عيدَ ميلادي بفارِغِ الصَّبْر، فَسَوْفَ أُصْبِحُ أَكْبَرَ بِسَنَةٍ كامِلَة، فَكَّرْتُ أَنَّني رُبَّما أُصْبِحُ حينَها مَرْئِيَّةً. كانَ الحَفْلُ صَغيراً ومُقْتَصراً على بَعْضِ الصَّديقات، فَأَنا طَلَبْتُ ذلك لأَنَّني أَخافُ الغُرَباءَ قَليلاً.

طَبْعاً كانَتِ **الهَدايا** التي أَمامي تَحْتَوي، كما اعْتَقَدْتُ، على وِساداتٍ وأَلْعابٍ وأَكْوابٍ وبَعْضِ الحُلِيِّ البلاسْتيكِيَّة، كَالعادَة. أَتَتْ والِدَتي وبيَدِها هَدِيَّةٌ كَبيرَة، «لا بُدَّ أَنَّها قَدْ أَحْضَرَتْ لي جِهازَ التَّسْجيلِ الذي أُريد، لا أُصَدِّق!»

ما هذا الحَظُّ السَّيِّء، زَلاجاتٌ لِلَّعِب!

مَنْ قال إِنَنِّي أُريدُ ذلك؟

أَحْضَرَتْ لي «ميرنا» هَدِيَّةً أَيْضاً، لا بُدَّ أَنَّها شَيْءٌ قَديمٌ كانَ لها ولمْ تَعُدْ تُريدُه، أو رُبَّما فِرْشاةُ شَعْرٍ مَعْ رَبْطات، ما الذي أَتَوَقَّعُهُ أَكْثَرَ من ذلك!

لأَوَّلِ مَرَّةٍ اقْتَرَبَتْ مِنّي أُخْتي الكُبْرى وأَمْسَكَتْ يَدَيَّ بِطَريقَةٍ جَميلَةٍ وقَوِيَّة. «لَقَدْ أَصْبَحْتِ كَبيرَةً الآنَ، وأُخْتُكِ الكُبْرى تَعْلَمُ أَنَّكِ تَحْتاجينَ لأَشْياءَ مُخْتَلِفَةٍ عَمّا حَصَلْتِ عَلَيْهِ سابِقاً».

ناوَلَتْني حَقيبَةً مُتَوَسِّطَةَ الحَجْمِ فيها غَرَضٌ ثَقيلٌ وبَعْضُ الأَغْراضِ الأُخْرى المُتَفَرِّقَة. اسْتَأْذَنَتْ أُخْتي مِنْ أُمّي أَنْ أَفْتَحَ هَدِيَّتَها فَوْراً، وألاّ تَغْضَبَ مَهْما كانَتِ الهَدِيَّة. فاجَأَتْني أُخْتي بِلا شَكٍّ بِتَصَرُّفِها، وفاجَأَني تَعاوُنُ والِدتي الّذي لمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُه.

أُحِبُّهُما كَثيراً ولكِنّني أَغْضَبُ مِنْهُما بِسُرْعَة.

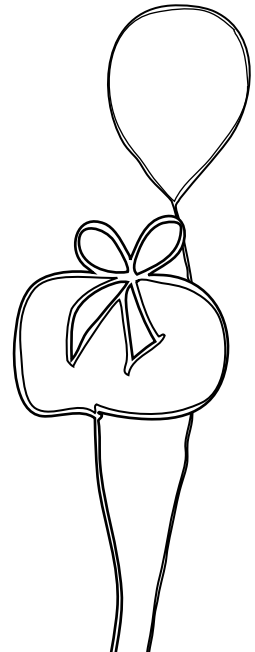

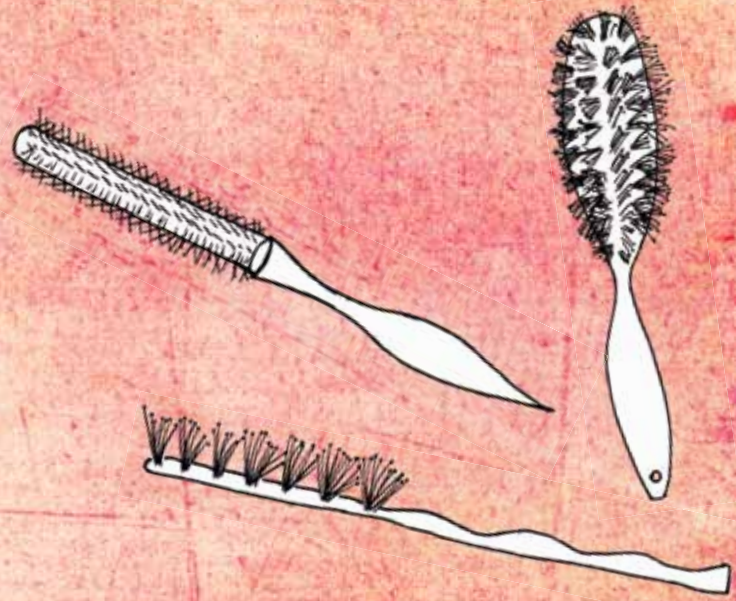

لمْ تَذْهَبْ دَهْشَتي، فَقَدْ كُنْتُ مُمْسِكَةً بِيَدي اليُمْنى مُجَفّفاً للشعرِ جميلاً جداً و«جديداً»، وَبِيَدي اليُسْرى جَميعَ المُسْتَلْزَماتِ الأُخْرى، فَراشيَ شَعْرٍ ومُشْطاً وحتى بعضَ الزّينَةِ الخَاصَّةِ بِذلك.

كانَتْ تِلْكَ أَجْمَلَ هَدِيّةٍ قَدّمَها لي أَحَدٌ مُنْذُ وِلادَتي!

فِعلاً كُنْتُ فَرِحَةً وأُحِسُّ أَنّني سَأَقْفِزُ مِنْ مَكاني.

احْمَرَّتْ وَجْنَتايَ مِنَ الفَرَحِ وخَجِلْتُ لِغيرَتي مِنْ أُخْتي الكُبْرى، وقَدْ بَدَتْ لي أَلْطَفَ مَخْلوقٍ رَأَيْتُه في حَياتي. اِبْتَسَمَتْ أُمّي ولَمْ تُعْطِ أَيَّ تَعْليق، ابْتَسَمَتْ أُخْتي بِدَوْرِها وهَزَّتْ رَأْسَها راضِيَةً مِنْ نَفْسِها ومِنْ رَدَّةِ فِعْلي. عَلِمْتُ حينَها بِأَنَّ أُخْتي الكُبْرى بَدَأَتْ تَفْهَمُني والأَهَمُّ ... **تَراني**.

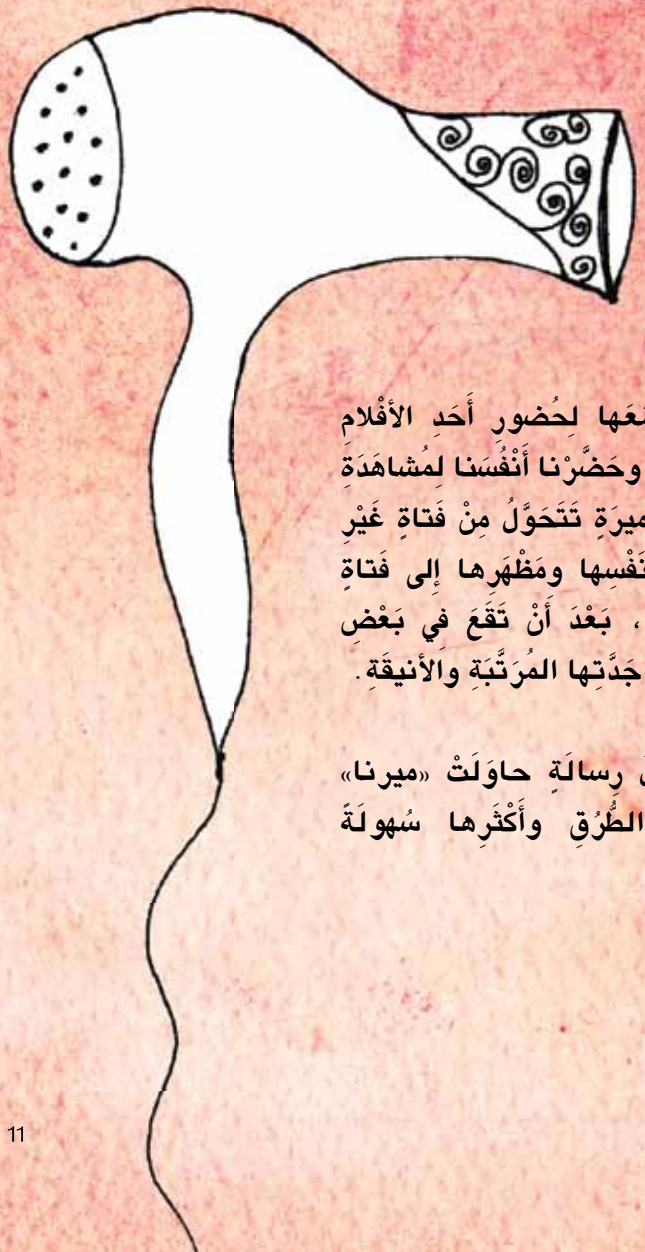

وَعَدَتْني بِأَنْ تَأْخُذَني مَعَها لِحُضورِ أَحَدِ الأَفْلامِ الجَميلَة، وقَدْ ذَهَبْنا معاً وحَضَّرْنا أَنْفُسَنا لِمُشاهَدَةِ فيلمٍ تَدورُ قِصَّتُهُ حَوْلَ أَميرَةٍ تَتَحَوَّلُ مِنْ فَتاةٍ غَيْرِ مُكْتَرِثَةٍ وغَيْرِ مُبالِيَةٍ بِنَفْسِها ومَظْهَرِها إِلى فَتاةٍ مَسْؤولَةٍ جَميلَةٍ ورائِعَة، بَعْدَ أَنْ تَقَعَ في بَعْضِ المَتاعِبِ، وتَتَعَرَّفَ على جَدَّتِها المُرَتَّبَةِ والأَنيقَةِ.

أَحْسَسْتُ أَنَّها كانَتْ أَوَّلَ رِسالَةٍ حاوَلَتْ «ميرنا» إيصالَها لي بِأَقْصَرِ الطُّرُقِ وأَكْثَرِها سُهولَةً وتَأْثيراً.

أَقْنَعَتْ «ميرنا» أُمّي بِضَرورَةِ المُحافَظَةِ على طولِ شَعْري البُنِّيّ الجَميل، كما تَراهُ، شَرْطَ العِنايَةِ بِه والاسْتِحْمامِ يَوْميًّا. لا بُدَّ مِنْ تَنْفيذِ هذا الشَّرْطِ بالتَّأْكيد!! مع أَنَّني أَكْرَهُ الاسْتِحْمام، ولَكِنَّهُ ضَروريٌّ لِمَظْهَري ورائِحَتي الّتي بَدَتْ أَيْضاً رائِعَةً بَعْدَما اشْتَرَتْ لي أُمّي عِطْراً مُخَصّصاً لِلْفَتَياتِ مِنْ عُمْري.

ذَهَبْتُ مَعْ والِدَتي وأُختي إلى السّوق، لا أُطيقُ التَّسَوّق! ولَكِنَّني اقْتَنَعْتُ بِأَنَّني إنْ أَرَدْتُ التَّغييرَ والتَّحَسُّن، لا بُدَّ أَنْ أَتْعَبَ قَليلاً لِلْبَحْثِ عنِ الأَفْضَل والمُناسِبِ لي. تَرَكَتْنا أُمّي نَخْتارُ ما نُريدُ لِلتَّجْرُبَة، ثُمّ نَتَّفِقُ على شِراءِ قِطْعَةٍ واحِدَةٍ جَميلةٍ تَليقُ بي.

بَدَأْتُ بِتَجْرُبَةِ الفَساتينِ والتَنانيرِ والأَحْذِيَة. لا أُصَدِّقُ أَنَّها تَليقُ بي ولَمْ أَتَصَوَّرْ أَنَّني سَوْفَ أَبْحَثُ عَنْها بِنَفْسي، ولَنْ يُجْبِرَني على ذَلكَ أَحَد. لِأَوَّلِ مَرَّةٍ أَقِفُ أمامَ المِرْآةِ في مَحَلّاتِ الملابسِ وأُتابِعُ مَعْ أُخْتي وأُمّي التَّفاصيلَ. شُعورٌ رائِعٌ وغَريبٌ في نَفْسِ الوَقْت!

حتّى أَنَّني ذَهَبْتُ مَعْ والِدَتي لِزيارَةِ مَنْزِلِ الجيران، ورُبَّما هذهِ المَرَّةُ الثّانِيَةُ الّتي أَدْخُلُ فيها مَنْزِلَهُمُ المُلاصِقَ لنا. أُناسٌ لُطَفاءُ وكُرَماء، كانَتْ ضِيافَتُهُم الكَثيرَ مِنَ البوظَةِ اللّذيذَة، وقدْ لَعِبْتُ مَعْ اِبْنَتِهِم الصُّغْرى واسْتَطَعْتُ التَّحَكُّمَ بِها كما أَشاء!! لا بُدَّ مِنْ زِيارَتِهِمْ مُجَدَّداً، كما طَلَبْتُ مِنْ والِدَتي.

لا أُصَدِّقُ أَنَّني أَصْبَحْتُ المُقَرَّبَةَ مِنْ أَميرَةِ المَنْزِل، وَصيفَتَها! أَصْبَحْتُ أَدْخُلُ غُرْفَتَها متى أَشاء، طالَما أَنَّني أُحافِظُ على الهُدوءِ والتَّرتيبِ الذي تُجيدُهُ «ميرنا» فِعْلاً، ولا أَلْمِسُ حاجياتِها الخاصَّة.

أَصْبَحْتُ أَلْجَأُ إِلَيْها عِنْدَ غَضَبي مِنْ إِحْدى صَديقاتي أَوْ مِنْ مَوْقِفٍ مُحْرِج. تَسْمَعُني وتَنْصَحُني بِهُدوئِها المُعْتاد، تُخَفِّفُ عَنّي وتُرْشِدُني إلى أَفْضَلِ الطُّرُقِ لِلْمُحافَظَةِ على الصّداقاتِ والخُروجِ مِنْ أيِّ مَأْزَق.

بَدَأْتُ بِتَرْتيبِ نَفْسي أَكْثَرَ، ولكِنْ بِحُدود، كَما طَلَبَتْ أُمّي.
أُمّي حَبيبَتي رُبَّما بَدَأَتْ تَشْعُرُ بِالغَيْرَةِ مِنْ عِلاقَتي مَعَ أُخْتي، هذا ما هَيَّأَ لي عَقْلي الصَّغير. لمْ أُدْرِكْ أَنَّها مُرْتاحَةٌ وسَعيدَةٌ بِأَنَّني تَعَلَّقْتُ بِأُخْتي الكُبْرى، لمْ أَعْلَمْ أَنَّها كانَتْ تُتابِعُ مَعَها كُلَّ تَفاصيلِ التَّحْسيناتِ الّتي طَرَأَتْ على شَكْلي وعَقْلي وطَريقَةِ تَفْكيري.

أَصْبَحْتُ بِدَوْري أُتابِعُ «ميرنا» وأُشَجِّعُها كَما تُشَجِّعُني، وأَعودُ إِلَيْها عِنْدَ أَيِّ سُؤالٍ في الدِّراسَةِ التي تَحَسَّنْتُ بِها كَثيراً. يا تُرى هَلْ أَخْبَرَ «وليد» خالَتي بِالتَّطَوُّراتِ والأَحْداثِ!

لَقَدْ كانَتِ الخُطْوَةُ التي أَقْدَمَتْ عَلَيْها أُخْتي الكُبْرى، الدّافِعَ لي لِلاقْترابِ مِنْها ومَعْرِفَةِ أَسْرارِها وأَخْبارِها. أَشْعُرُ الآنَ بِكُلِّ فَخْرٍ أَنَّني أُخْتُها الصُّغْرى، فَهِيَ مَحْبوبَةٌ ومَرِحَةٌ ومُجْتَهِدَةٌ وكَلامُها دائِماً جَميل، وسَوْفَ أَتَعَلَّمُ مِنْها الأَفْضَلَ دائِماً.

ولَكِنْ ما الّذي تُخْفيهِ أُخْتي وَراءَ هذا المَرَحِ والعَطْفِ؟

أَشْعُرُ أَنَّ شَيْئاً ما يُزْعِجُها. عَلَيَّ كَسْبُ ثِقَتِها لاحِقاً لِمَعْرِفَةِ ما الذي يُبْكيها بِصَمْتٍ لَيْلاً وهي وَحيدَة. رُبَّما عِنْدَما أَفْهَمُ ما يَجْري مَعَها، سَوْفَ أَسْتَطيعُ مُساعَدَتَها كَما ساعَدَتْني في تَحْسينِ نَفْسي. سَأَنْتَظِرُ وأُقْدِمُ على هذِهِ الخُطْوَةِ لاحِقاً.